الفصل الثانى عشر

بنو أمية (تابع ما قبله)

الإمبراطورية العربية حين وفاة هشام — قسوته نحو أقاربه — مقتل خالد القسرى — ثورة يحيى بن زيد وموته — تأثيرها على أهل خراسان — حالة أسبانيا — حسام (أبو الخطاب) حاكم الأندلس — خضوع جميع الأحزاب — عدالته — تعصبه لليمانيين — فتنة المضريين — موقعة شقوندا — انتخاب ثعلبة — وفاته — انتخاب يوسف — فارس الأندلس — وفاته — وصول عبد الرحمن حفيد هشام — هجوم بيبين القصير — مذبحة المسلمين — حصار أربونة — الاستيلاء عليها — زوال حكم العرب فى فرنسا — أفريقيا — الفتنة على الوليد الثانى — وفاته — خلافة يزيد الثالث — وفاته — تولية إبراهيم — قيام مروان — موقعة عين الجر — فرار إبراهيم — اعتلاء مروان عرش الخلافة

الإمبراطورية العربية

لما توفى هشام سنة ٧٤٣ م كانت الإمبراطورية العربية فى أوج عظمتها، ففى أوربا كانت تبسط حمايتها على جنوبى فرنسا وأنحاء شبه جزيرة أيبريا، ماعدا بعض الهضاب التى كان يعتصم بها رجال العصابات، أما فى البحر الأبيض المتوسط فكانت تضم إلى جانب ممتلكاتها جزائر ماجوركا ومانوركا وإيفيكا وكورسيكا وسردينيا وكريت ورودس وقبرص وقسما من صقلية، وعدة جزر أخرى من جزائر الأرخبيل اليونانى، كما كان يمتد سلطانها فى أفريقيا من بوغاز جبل طارق حتى خليج السويس، وفى آسيا من جبل سينا إلى هضاب المغول.

وبينما كانت المؤامرات الواسعة المدى تعمل على هدم نفوذ الخلافة فى المشرق، كانت المنازعات تنذر بحل أوشاج تلك الرقعة الفسيحة الأرجاء فى المغرب. وقد حدث فى تلك اللحظة الحرجة أن خسرت البلاد بموت «هشام»

حاكما ، فاضلا ، حذراً ، بالرغم مما كان عليه من ضعف الهمة وخور العزيمة . ويويع بعده « الوليد بن يزيد » الذى كان يختلف عن سلفه كل الاختلاف ، إذ كان متهتكا ، خليعاً ، ماجناً ، سكيراً ، لا يهتم بالأوضاع الأخلاقية ؛ الأمر الذى أدى إلى اشمئزاز الشعب منه ، ولهذا حاول سلفه أن يعزله من ولاية العهد ويولى ابنه مكانه ؛ ولكنه عند ما فشل فى ذلك سعى إلى تقويم أخلاقه ، غير أن الوليد لم يلبث أن ترك العاصمة ساخطاً من تدخل الخليفة فى شأنه ، وقصد إلى موقع يسمى « بالأزرق » فى الأردن ، وظل يترقب موت عمه بصبر نافذ حتى زفت إليه البشرى التى طالما منى نفسه بها ، فأسرع إلى دمشق ؛ وكان أول ما قام به بعد مبايعته بالخلافة أن طرد أسرة هشام من القصر ، ويقال إنه لم يوافق على دفن الخليفة المتوفى إلا بتوسط أهله . ومما يؤثر عنه أيضاً أنه كان صارماً مع أبناء عمومته مع ما كانوا عليه من الشجاعة ، وما لهم من الأيادى البيضاء والبلاء الحسن فى المعارك مع الروم . فبهذه الأفعال وبأمثالها أوغر عليه صدور المسلمين ، بالرغم من أنه حاول فى أوائل عهده أن يستميل إليه الجنود بزيادة رواتبهم ، ويتقرب إلى الشعب بتوزيع الجوائز عليهم ، كما زاد فى أرزاق الفقراء والعجزة ، ولكن هذا الكرم المصطنع لم يغن عنه فتيلا ، نظراً لقسوته وتقلب أهوائه وضعف أخلاقه .

أما « خالد » والى العراق السابق فكان يسكن دمشق منذ أن أطلق « هشام » سراحه ، ولكن الوليد لم يلبث أن بعث به إلى عدوه « يوسف بن عمر الثقفى » كما أمر فى الوقت نفسه بإلقاء القبض على « يحيى بن زيد » فأخذ يطارده حتى يئس الشاب من تلك الحياة ، وقام على رأس جماعة مسلحة مؤثراً القتل فى ساحة الوغى عن التسليم ليذبح ذبح الأنعام ؛ وقد قتل فعلا كما أراد ، واحتز رأسه وحمل إلى الوليد فأثار مصيره المحزن حماسة أهل خراسان ، وعجل فى تزعزع بنيان الدولة الأموية ، وأعلن الشعب عليه الحداد ، كما أطاق على من

ولد يوم وفاته فى خراسان اسم « يحيى » . ولما أضرم أبو مسلم نار الثورة بدعوى الانتقام لبيت الرسول انضوى هؤلاء تحت رايته متشحين بالسواد ، وهو اللون الذى اتخذ شعاراً للدولة العباسية ، ومما يؤثر عن « أبى مسلم » أنه نكل بجميع الذين اشتركوا فى قتل « يحيى » من غير ما شفقة ولا رحمة .

انتخاب ثعلبة فى الأندلس

والآن بعد أن استعرضنا أهم الحوادث التى وقعت فى المشرق نحول أبصارنا شطر الأندلس ، فنرى الخليفة هشام يصادق على ولاية ثعلبة . بيد أن هذا الحاكم الجديد كان متعصباً لليمانيين ، فثار عليه المضريون يؤازرهم البربر والمولدون ولكنه سار إليهم بجيش كبير فهزمهم عند أسوار « ماردة » ، ومزقهم شر ممزق . ويقال إنه أسر منهم عشرة آلاف رجل عدل عن ذبحهم جميعاً فى اليوم التالى إذ عند ما أيقن الأسرى أنهم — لا محالة — ملاقون حتفهم لاحت فجأة عن بعد راية الخليفة ، وأخذت تقترب منهم رويداً رويداً فاهتزت لها القلوب طرباً وابتهاجاً ، لأن اسم الخليفة بالرغم من الانحلال الذى بدا على الخلافة والتفكك الذى اعترى أجزاء الإمبراطورية فى ذلك الحين ، كان لا يزال يحمل فى أطوائه معانى التقديس والاحترام ، وكان اقتراب الراية التى أوقفت تنفيذ الحكم نذيراً بتعيين عامل جديد يدعى « أبا الخطار حسام الكلبى » وهو أيضاً يمنى الأصل أوفده حنظلة بن صفوان أمير أفريقيا بموجب أوامر هشام لنشر الأمن وتهدئة الاضطرابات التى ثارت بين الحزبين المتنازعين .

دخل حسام قرطبة فى شهر رجب سنة ١٢٥ هـ أى بعد خمسة أشهر من وفاة هشام ، ويحدثنا المؤرخون فى هذا الصدد « أنه لم يكد يصل إلى بلاد الأندلس حتى جنحت جميع الطوائف إلى السلم وتصالح الثوار » . أما « ثعلبة » حاكم الأندلس السابق فقد أعلن طاعته وقفل راجعاً إلى الشام .

اشتهر « أبو الخطار » فى بادئ الأمر بالعدل والإنصاف ، ولكنه مع ذلك لم يتخلص من النعرة القبلية ، فراح ينحاز إلى الحميريين فى أسبانيا كما أهان

المضريين فى شخص رئيسها فثاروا عليه واضطرمت الفتن من جديد ، فاصطلى الفريقان بنارها بأشد من ذى قبل ، ووقعت معارك شديدة دامية فى « شقندة » على مقربة من قرطبة دارت فيها الدائرة على اليمانيين وقتل « أبو الخطار » ، وعندئذ اختار المضريون « ثوابة بن سلامة » أحد زعماء اليمنية والياً عليهم ، وانتخبوا له مساعداً اسمه الصميل . وقد ظل ثوابة متربعا فى دست الحكم حتى وافته منيته بعد سنتين و ٦ أشهر ، فانتخب الجيش فى مكانه بترشيح الصميل شخصا آخر من أحفاد « عقبة بن الحجاج » فاتح أفريقيا ، يدعى « يوسف بن عبد الرحمن الفهرى » ، فاستطاع أن يؤلف بين قلوب الطرفين ويخمد نار الفتن ، وبذلك اضطلع بالحكم نحوا من عشر سنين دون مصادقة خليفة دمشق على هذا التعيين ودون أن ينازعه فى حكمه أى منازع . ولكنه بالرغم من حنكته ومهارته ثار عليه « عبد الرحمن اللخمى » حاكم « أربونة » الملقب (بفارس الأندلس) ، ولكن هذا لم يعتم أن قتل غيلة على يد أحد أعوانه . كذلك ثار زعيم آخر فى « باجه » وثالث فى « الجزيرة » ورابع فى « أشبيلية » ، ومع ذلك فقد نجح يوسف فى إخماد تلك الفتن . ولولا قدوم حفيد « هشام » الذى فر من وجه العباسيين عام ٧٥٥ ميلادية لأسس « يوسف » أسرة حاكمة تسمى باسمه ؛ ولكن وصول ذلك الأمير الأموى غيّر مجرى التاريخ فى تلك البلاد .

كان الأمير الأموى نشط الفؤاد إداريا بارعا ، أعانه اسم أسرته على اكتساب ثقة الناس وعطفهم عليه فتغلب على جميع الصعاب ، وأسس فى النهاية دولة أموية جديدة فى الأندلس .

غزو المسلمين فى فرنسا

وفيما كان يوسف منهمكا فى تسوية مشاكل البلاد الداخلية أغار بيبين القصير — الذى كان يترقب تضعضع قوة العرب — بجيش لجب على « لانجدوك » « وسبتمانية » وغربى « سافوا » ، وهى المدن التى كانت لا تزال فى قبضة العرب فأشعل فيها النيران ، ووثب بالمسلمين القاطنين فيها وفتك بهم حتى استحالت تلك

المدن الآمنة إلى ساحات واسعة للمذابح والتدمير ، فنجم عن هذه الأعمال الوحشية قحط مخيف هلك فيه عدد عظيم من الناس . وبالرغم من قلة عدد العرب وضعف شأنهم فى جنوبى فرنسا وتألب الأعداء عليهم فقد دافعوا دفاعا مستميتا طوال ثلاثة أعوام عن كل شبر من ممتلكاتهم . وفى عام ٧٥٥ م لم يبق فى أيدى العرب غير مدينة واحدة اسمها « أربونة » كان قد حاصرها بيبين مستعملا فى إخضاعها ضروب الفتك والتدمير ، ولبث الحصار أربعة أعوام حتى انتهز نصارى المدينة ذات يوم فرصة إهمال الحراس ووثبوا بالمسلمين ثم فتحوا أبواب المدينة عنوة ، وفى الحال انقض المحاصرون البرابرة انقضاض الصواعق ، وأثخنوا فى المسلمين رجالا ونساء وأطفالا حتى أفنوهم عن آخرهم من غير ما شفقة ولا رحمة .

وهكذا امّحت آثار المدنية فى تلك المدينة وسقطت فى دياجير الجهل الذى كان يسود أوروبا المسيحية فى ذلك العهد . وبينما كان « بيبين » يطارد جيوش المسلمين فى فرنسا على هذا النحو ، أدت مشاكل العرب الداخلية فى الأندلس إلى انسحابهم من المناطق الجبلية المتاخمة لخليج بسكاى ، حيث كان الثوار قد أسسوا نواة مملكة جديدة .

فى أفريقيا

أما فى أفريقيا فقد حكم حنظلة البلاد منذ انهزام البربر فى القيروان بنجاح لم يسبق له مثيل ، واعترف له حتى البربر والخوارج بنبل القصد والعدالة وعلو الهمة فتمتعت البلاد فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ، وزهت التجارة والصناعة ، غير أن أحد الموظفين المنفيين واسمه « عبد الرحمن بن حبيب » لم يعتم أن أضرم نار الثورة فى البلاد فعمت الفوضى والمنازعات . وفى عام ١٢٧ هـ قاد « عبد الرحمن » الثوار بنفسه فى تونس وألقى القبض على الأشراف الذين كان « حنظلة » قد أوفدهم إليه ليردعوه عن غيه ، وسار بهم على رأس قوة كبيرة إلى القيروان مهددا بذبحهم إن هو استعمل معه القوة ، فروع « حنظلة » الذى كان يكره إراقة الدماء وانسحب إلى آسيا حيث اعتزل الحياة العامة . وما هى إلا برهة حتى

سقطت القيروان فى أيدى ذلك الثائر الذى نادى بنفسه حاكما عليها ، غير أن حكمه الذى لم يؤسس إلا على الخيانة والغدر ظل عرضة للثورات والفتن الداخلية ، ومع ذلك فقد ظل قابضا على دفة الأمور بيد من حديد حتى فتك به أخوه عام ١٣٧ هجرية .

ولعل من الفائدة الآن أن نستعرض بإيجاز الحوادث السياسية التى أدت إلى سقوط البيت الأموى فنقول :

الوليد الثانى

كانت دمشق إلى ذلك الحين معقل الأمويين الحصين ، ومهما يكن من أمر خلفائهم وما كانوا عليه من نزعات وطباع ، فلم يحد قط أفراد هذا البيت عن ولائهم للخليفة ، إذ كانوا جميعا يرتشفون فى الطفولة لبان الإخلاص والولاء ويشبون على تقديس مصالح الأسرة ، أضف إلى ذلك شدة حرصهم على حفظ كيان بيتهم وصيانته مما يشين سمعته . غير أنه وقع فى عهد الوليد الثانى حادث لم يسبق له مثيل قط فى تقاليد ذلك البيت ؛ وتفصيل الخبر أن الوليد كان شغوفا بالموسيقى وسباق الخيل ، وبلغ من حبه للطرب أن أهمل شؤون الدولة وشاركه فى ذلك الميل بعض أفراد الأسرة بالرغم من سخط أتقياء العاصمة عليهم ، ولكن إسفافه وتحديه لأبسط قواعد الأخلاق نفر منه حتى قلوب أخلص الأعوان ، وأبعد عنه معظم الأمراء ، كما أن إغضاءه عن قاتل « خالد » حاكم العراق السابق فى شهر محرم سنة ١٢٦ هـ أسخط عليه الحميريين فى الشام ، فثاروا عليه ثورة هائلة بقيادة يزيد بن الوليد الأول حفيد عبد الملك ، وانضم إليهم أهل دمشق وحاصروه فى قصره بقرية تعرف « بالبحراء » ، وقد حاول فى بادئ الأمر أن يتفاهم معهم ولكنهم أفهموه أنهم يسخطون عليه لانهماكه فى الملذات وتهتكه ، ثم كسروا أبواب القصر وهجموا عليه واحتزوا رأسه ، ثم نصبوه على رمح وراحوا يطوفون به فى شوارع دمشق . فهذه الظروف التى أحاطت بمقتل الوليد ، وذلك

التمثيل الفاضح بجسمه أزالا القدسية عن شخصية الخليفة وقضيا على الاحترام الذى كان يحيط بمقامه الجليل .

يزيد الثالث الملقب بيزيد الناقص

و بعد مقتل « الوليد » ولى « يزيد بن الوليد الأول » قائد الثورة ، وكان تقيا ورعا متمسكا بأصول الدين ، سالم الطوية ، فأشار فى الخطبة التى ألقاها عقب مبايعته إلى أسباب خروجه على ابن عمه ، ووعد بأن أول ما سيعنى به هو تحصين الحدود ، و إقامة الحاميات فى المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الخائنين ، وقمع الثورة فى حمص وفلسطين . ولو أنه عاش مدة أطول لبرهن على جدارته لهذا المنصب العظيم ، بيد أن مدة حكمه كانت قصيرة نشبت فى خلالها الاضطرابات وعمت الفوضى ، فلم تسمح له الفرصة بإدخال ماوعد به من الإصلاحات . وقد رفض مروان عامل أرمينيا فى بادئ الأمر مبايعة الخليفة الجديد ، وأقبل على الشام متوعدا مهددا بأن يولى أحد أبناء الوليد الخلافة . ولكن يزيد استطاع أن يستميله و يمنحه ملك أبيه ، وبذلك انقلبت الآية فزج أبناء الوليد الثانى فى غيابات السجن ، كما عزل يوسف قاتل خالد من منصبه ، وعين عبد الله ابن عمر الثانى مكانه ، غير أن ناصر نائب الأمير فى خراسان أبى أن يطيع عبد الله أو يعترف بخلافة يزيد ، فأثر هذا الشلل الذى منيت به الإدارة على أنحاء الإمبراطورية ، كما عجزت عن تأديب « عبد الرحمن » الثائر فى أفريقيا ، وحتى الإصلاح الوحيد الذى قام به « يزيد » لم يكسبه إلا سخط رجال الجيش ، ذلك أن الوليد الثانى كان قد زاد فى رواتبهم ؛ ولكن يزيد لم يلبث أن أعادها إلى ما كانت عليه فى عهد « هشام » فلقبوه بالناقص ؛ وتوفى فى سنة ١٢٦ ، وكانت مدة ولايته ٦ أشهر .

إبراهيم بن الوليد

و بعد وفاة يزيد قام أخوه إبراهيم بالأمر من بعده ، ولكن سلطانه لم يمتد إلا على دمشق وضواحيها ، ولم يبق فى الحكم غير شهرين وعشرة أيام ، ولذلك لا يعده المؤرخون من جملة الخلفاء .

مروان الثانى

وقد خف مروان فى قوة مسلحة إلى دمشق لإنقاذ أبناء الوليد من الحبس حتى انتهى إلى عين الجر، وهى بلدة صغيرة واقعة بين لبنان والشام على الطريق الممتد من بعلبك إلى دمشق، فقابله جيش جرار مؤلف معظمه من اليمانيين، ولكن جيش مروان كان قد تدرب على الفنون العسكرية فى حروبه الطويلة مع الجيوش البيزنطية والقبائل التركية، فهزم اليمانيين ومزقهم شر ممزق، وهكذا أصبح طريق دمشق مفتوحا أمام مروان. وبينما كان يقترب من العاصمة فرّ إبراهيم ومعاونوه الجلادون بعد أن فتكوا بأبناء الوليد لعلهم يوقفوا بذلك زحف مروان الذى جاء لإنقاذهم، كما فتكوا أيضا بقاتل خالد؛ ولهذا ثار أعوان أسرة الوليد وأخذوا يفتكون بأتباع الخليفة «إبراهيم» وأخيه المتوفى، فقتلوا منهم عدداً كبيرا ونهبوا قصورهم ثم نبشوا عن جثة يزيد الثالث وصلبوه على باب المدينة[1]، ووقعت دمشق فى حالة مخيفة من الفوضى والارتباك حتى هرع أشراف المدينة يرحبون بوصول مروان الذى بايعوه بالخلافة رغبة منهم فى وضع حد لأعمال النهب والتخريب وإعادة البلاد إلى عهد الطمأنينة والسلام.

---

(١) لم تكن عادة نبش القبور مقتصرة على آسيا فحسب، ومثال ذلك أن قبر برسى هستبور نبش فى القرن الخامس عشر بأمر هنرى الرابع.